الجزء الخامس والعشرون

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (٤٨) .

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

الساعة : يوم القيامة ، الأكمام : واحدها كِمٌّ (بالكسر) : وعاء الثمرة ؛ وقد يطلق على كل ظرف لمال أو غيره ، آذناك : أي أعلمناك ؛ يقال آذنه يؤاذنه أي أعلمه كما قال :

آذنتنا ببينها أسماء ... رب ثاوٍ يُملّ منه الثواء

ضل عنهم : أي غاب وزال ، ظنوا : أي أيقنوا وعلموا ، محيص : أي مهرب ؛ يقال حاص يحيص حيصا : إذا هرب .

المعنى الجملى

بعد أن هدد الكافرين بأن جزاء كل عامل سيصل إليه يوم القيامة كاملا غير منقوص ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر — أردف ذلك ببيان أن هذا اليوم لاسبيل للخلق إلى معرفته ، فلا يعلمه إلا هو ، وأن علم الحوادث المقبلة فى أوقاتها المعينة مما استأثر الله به ، فلا يعلم أحد متى تخرج الثمر من الأكمام ، ولا متى تحمل المرأة ولا متى تضع . ثم ذكر أنه سبحانه يوم القيامة ينادى المشركين تهكما وتقريعا لهم : أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟ فيجيبون : الآن لانشهد لأحد منهم بالشركة فى الألوهية ، وقد غابوا عنهم فلا يرجون منهم نفعا ، ولا يفيدونهم خيرا ، وأيقنوا حينئذ أن لامهرب لهم من العذاب .

روى أن المشركين قالوا يا محمد إن كنت نبيا فخبرنا متى تقوم الساعة فنزلت الآية :

الإيضاح

(إليه يرد علم الساعة) أى إذا سئل عنها أحد ردّ علمها إليه تعالى ، فإنه لايعلم متى قيامها سواه ، وقد جاء فى الحديث « أن جبريل عليه السلام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل » .

ونحو الآية قوله تعالى : « إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا » وقوله : « لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ » .

وبعد أن ذكر أنه استأثر بعلم الساعة بين أنه اختص أيضا بعلم الغيب ومعرفة ما سيحدث فى مستأنف الأزمنة فقال :

(وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) أى وما تبرز الثمرة من وعائها الذى هى مغلّفة به ، وما تحمل أنثى ولا تضع ولدها

إلا بعلم من الله ، فهو لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ونحو الآية قوله : « يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ » .

وفى هذا دليل على أن المنجمين لا يمكنهم الجزم بشىء مما يقولون البتة ، وإنما غايته ادعاء ظن ضعيف قد يصيب وربما لا يصيب ، وعلم الله هو المقطوع به الذى لا يشركه فيه أحد .

ثم ذكر بعض ما يحدث فى هذا اليوم فقال :

(ويوم يناديهم أين شركائى قالوا آذناك ما منا من شهيد) أى واذكر أيها الرسول لقومك يوم ينادى سبحانه عباده المشركين على رءوس الأشهاد تهكما بهم واستهزاء بأمرهم — أين شركائى الذين عبدتموهم معى ؟ فيجيبون ويقولون : أعلمناك أنه ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكا ، ونفى الشهادة يراد به التبرؤ منهم ، لأن الكفار يوم القيامة ينكرون عبادة غير الله كما حكى الله عنهم أنهم قالوا : « وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » .

والخلاصة — إن قوله آذناك إخبار بإعلام سابق علمه الله من أحوالهم يوم القيامة وأنهم لم يبقوا على الشرك ، وعلى تلك الشهادة كأنهم يقولون أنت أعلم به ثم يأخذون فى الجواب .

(وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل) أى وغابت عنهم آلهتهم التى كانوا يعبدونها فى الدنيا ، فأُخِذ بها طريق غير طريقهم فلم تنفعهم ولم تدفع عنهم شيئا من عذاب الله الذى حل بهم .

(وظنوا مالهم من محيص) أى وأيقنوا حينئذ أنه لا ملجأ لهم من عذاب الله .

لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩)
وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ
السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى ، فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى
الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) .

شرح المفردات

لا يسأم : أى لا يمل ، والخير : المال والصحة والعزة والسلطان ، والشر : الفقر والمرض ونحوهما ، واليأس : انقطاع الرجاء من حصول الخير ، والقنوط : (بالفتح) من اتصف بالقُنوط (بالضم) وهو ظهور أثر اليأس على الإنسان من المذلة والانكسار، والرحمة هنا: الصحة وسعة العيش ، والضراء : المرض وضيق العيش ونحوهما ، هذا لى: أى هذا أستحقه لما لى من الفضل والعمل ، والحسنى : الكرامة ، والغليظ هنا : الكثير ، نأى بجانبه : أى تكبر واختال ، وعريض : أى كثير مستمر ؛ يقولون أطال فى الكلام ، وأعرض فى الدعاء : إذا أكثر .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه حال الكافرين فى الآخرة ، وذكر أنهم حينئذ يتبرءون من الشركاء بعد أن كانوا معترفين بهم فى الدنيا — أردف ذلك ببيان أن الإنسان متبدل الأحوال ، متغير الأطوار ، إن أحسّ بخير وقدرة انتفخت أوداجه وصعّر خديه ومشى الخيلاء ، وإن أصابته محنة وبلاء تطامن واستكان ويئس من الفرج ، وهذا دليل على شدة حرصه على الجمع ، وشدة جزعه من الفقد ، إلى ما فيه من طيش يتولد عنه إعجابه واستكباره حين النعمة ، وتطامنه حين زوالها ، وذلك مما يومئ

بشغله بالنعمة عن المنعم فى حالى وجودها وفقدها ، أما فى حال وجودها فواضح ، وأما فى حال فقدها فلأن التضرع جزعا إنما كان على الفقد الدالّ على الشغل عن المنعم بالنعمة .

الإيضاح

(لايسأم الإنسان من دعاء الخير) أى لايمل الإنسان من دعائه ربه ومسألته إياه أن يؤتيه صحة وعافية وسعة فى الرزق ، فهو مهما أوتى من المال فهو لايقنع ، وقد جاء فى الأثر « منهومان لايشبعان : طالب علم وطالب مال » وجاء أيضا « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى لهما ثالثا » .

(وإن مسه الشر فيئوس قنوط) أى وإن أصابه بؤس وضيق فى المال أو ابتلى بمرض أنهك قواه واضمحلّ به جسمه - يئس من فضل الله ورحمته ، وظهر عليه سيمى الذل والانكسار والخنوع والخضوع .

وخلاصة ذلك — إن الإنسان متبدل الأحوال ، متغير الأطوار ، إن أحس بخير بطر وتعظم ، وإن شعر ببؤس ذل وخضع ، فهو شديد الحرص على الجمع ، شديد الجزع على الفقد .

ثم ذكر حال هذا اليئوس القنوط فقال :

(١) (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولنّ هذا لى) أى ولئن كشفنا ما أصابه من سقم فى نفسه أو شدة وجهد فى معيشته ، فوهبنا له العافية بعد السقم ، والغنى بعد الفقر - ليقولن هذا حق قد وصل إلىّ ، لأنى أستوجبه بما حصل لى من ضروب الفضائل وأعمال البر والقرب من الله ، لاتفضل منه علىّ — أو لا يعلم أن هذه الفضائل لو وجدت فإنما هى بفضل الله وإحسانه ، وهو لا يستحق على الله شيئا؟

(٢) (وما أظن الساعة قائمة) أى وما أظن الساعة ستقوم ، فلا رجعة

لا حساب ولا عقاب على شيء من الآثام التي يقترفها الإنسان في دنياه ، ويجترمها مدى حياته الدنيوية .

وما نتج هذا إلا من شدة رغبته في الدنيا ، وعظيم نفرته من الآخرة ، فهو حين نظر إلى أحوال الدنيا يقول إنها لي وأنا جدير بها لما لي من فضل به استحققتها ، وحين ينظر إلى أحوال الآخرة يقول وما أظن الساعة قائمة .

(٣) (ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى) أي وإن الغالب على ظني ن لارجعة ولا بعث ولا قيامة ، ولئن كان البعث حقا فإن لي عنده لكرامة في الآخرة ، فإن حالها كحال الدنيا ، فما استحققته من النعيم فيها سيكون لي مثله في الآخرة .

وبعد أن حكى عنهم هذه الأقوال ذكر أنه سيظهر لهم أن الأمر بعكس ما يظنون ، وبضد ما يعتقدون فقال :

(فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ) أي فلنخبرن هؤلاء الكافرين يوم يرجعون إلينا بما عملوا من المعاصي ، واجترحوا من الآثام ، وما دسّوا به أنفسهم من الخطايا ، ثم لنجازينهم عليها ، فيستبين لهم أنهم جديرون بالإهانة والاحتقار لا بالكرامة والإحسان ، ولنذيقنهم عذابا غليظا لايمكنهم الفكاك منه وهو عذاب جهنم التي لاموت فيها ولا يجدون عنها حولا .

وبعد أن حكى أقوال الذي أنعم عليه بعد وقوعه في الجهد الجهيد — حكى فعاله فقال :

(وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه) أي وإذا نحن أنعمنا عليه فكشفنا عنه المرض ووهبنا له صحة وعافية ورزقناه سعة العيش — أعرض عما دعوناه إليه من طاعتنا ، واستكبر عن الانقياد لأمرنا .

ثم ذكر أنه حين الضراء يكون على عكس هذا فيتضرع ويبتهل إلى ربه فقال:

(وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) أي وإذا أصابته شدة من فقر ومرض

ونحوهما أطال الدعاء والتضرع إلى الله ، لعله يكشف عنه تلك الغُمّة ، ويزيل عنه برحمته هاتيك المُلِمّة .

ونحو الآية قوله : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ » الآية .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ، مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ؟ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ، أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (٥٤) .

شرح المفردات

أرأيتم : أى أخبرونى ، أضل : أى أكثر ضلالا و بُعدا عن الحق ، والشقاق الخلاف ، والآفاق : النواحى من مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها واحدها أفق (بضمتين و بضم فسكون) وشهيد : أى شاهد على كل ما يفعله خلقه لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ومرية : أى شك ، من لقاء ربهم : أى من البعث بعد الممات ، محيط : أى عالم بجميع الأشياء لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

المعنى الجملى

بعد أن أوعد على الشرك وهدد ، وحذر وأنذر ، وذكر أن المشركين ينكرون الشرك يوم القيامة و يتبرءون من الشركاء و يظهرون الذل والخضوع لاستيلاء الخوف عليهم لما يرون من شديد الأهوال ، وأردف هذا بذكر طبيعة الإنسان وأنه متبدل

لايثبت على حال واحدة ، فإن أحس القوة تكبر وتعظم ، وإن شعر بالضعف أظهر المسكنة والمذلة — أعقب ذلك بلفت أنظار الطاعنين في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم إلى التأمل والتفكر فيما بين أيديهم من الدلائل ليرعووا عما هم فيه من الغى والضلال، ويقروا بها لتظاهر الأدلة عليها ، وعلى أن القرآن منزل من عند الله حقا ، وليعلموا أن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور .

الإيضاح

(قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد؟) أي قل أيها الرسول لهؤلاء المكذبين بالقرآن الذى جئتهم به من عند ربك : أخبرونى أيها القوم إن كان هـذا الذى أنتم به تكذبون ـ من عند ربى ثم كفرتم به ، أفلا تكونون مفارقين للحق بعيدين من الصواب ؟

وقد كانوا لما سمعوا القرآن أعرضوا عنه وبالغوا فى النفرة منه ، حتى قالوا: قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ، فلفت أنظارهم إلى أنه يجب عليهم النظر والتأمل فيه ، فإن دل الدليل على صحته قبلوه ، وإن أرشـد إلى فساده تركوه ، أما قبل ذلك فالإصرار على الإعراض والإنكار بعيدان عن الصواب وعما يحكم به العقل . فما أضلكم وأكثر عنادكم ومشاقتكم للحق واتباعكم للهوى .

وخلاصة ذلك — قل لهم : من أشـد ذهابا عن قصد السبيل ، وأسلك لغير طريق الصواب ، ممن هو فى فراق لأمر الله وخلاف له ، وبعد عنه ؟

وبعد أن ذكر أدلة التوحيد والنبوة أجاب عن شبهات المشركين وتمويهات الضالين فقال :

(سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) أى سنرى هؤلاء المشركين وقائعنا بالبلاد المحيطة بمكة وبمكة بما أجريناه على يدى نبينا وعلى يدى خلفائه وأصحابه من الفتوح الدالة على قوة الإسلام وأهله ، ووهن الباطل وحزبه

حتى يعلموا حقيقة ما أوحينا به إليك وأنه الحق الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن وعده صادق وأنه مظهر دينك على الأديان كلها .

والخلاصة — سنيسر لهم من الفتوح ما لم يتيسر لأحد ممن قبلهم ، ونظهرهم على الجبابرة والأكاسرة ، ونجرى على أيديهم من الأمور الخارجة عن المعهود ، الخارقة للعادة ، فيستبين لهم أن هذا القرآن هو الحق ، ومن ثمّ نصرَ حامليه ، وأظهرهم على أعدائهم فى قليل من الزمان .

ثم وبخهم على إنكارهم تحقق هذه الإراءة وحصولها فقال :

(أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟) أى كفى بالله شهيدا على أفعال عباده وأقوالهم ، وهو يشهد بأن محمدا صادق فيما أخبر به عنه كما قال : « لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ » الآية ، وقوله : « قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ؟ قُلِ اللهُ » .

وقصارى ذلك — ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التى أوضحها سبحانه فى هذه السورة وفى كل سور القرآن ، وفيها البيان الكافى لإثبات وحدانية الله وتنزيهه عن كل نقص ، وإثبات النبوة والبعث .

وبعد أن أقام الأدلة ، وأوضح الحجج حتى لم يبق بعدها مقال لمتعنت ولا جاحد — بين سبب عنادهم واستكبارهم فقال :

(ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم) أى إنهم فى شك من البعث والجزاء ، واستبعادهم إحياء الموتى بعد تفرق أجزائهم ، وتبدد أعضائهم ، ومن ثم لايلتفتون إلى النظر فيما ينفعهم عند لقائه كالتفكر فى صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأن القرآن حق لاشك فيه .

ثم دفع مريتهم وشكهم فى البعث وإعادة ما تفرق واختلط مما يتوهم منه عدم إمكان تمييزه فقال :

(ألا إنه بكل شىء محيط) أى إنه تعالى عليم بجمل الأشياء وتفاصيلها ، مقتدر عليها لايفوته شيء منها ، فهو يعلم ما تفرق من أجزاء الأجسام ، و يقدر على إعادتها إلى أمكنتها ، ثم بعثها وحسابها ، لتستوفى جزاءها على ما قدمت من عمل .

مجمل ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

(١) وصف الكتاب الكريم .
(٢) إعراض المشركين عن تدبره .
(٣) جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين .
(٤) إقامة الأدلة على الوحدانية .
(٥) إنذار المشركين بأنه سيحل بهم ما حل بالأمم قبلهم .
(٦) شهادة الأعضاء عند الحشر على أربابها .
(٧) ما يفعله قرناء السوء من التضليل والصد عن سبيل الله .
(٨) ما كان يفعله المشركون حين سماع القرآن .
(٩) طلب المشركين إهانة من أضلوهم انتقاما منهم .
(١٠) ما يلقاه المؤمنون من الكرامة يوم العرض والحساب .
(١١) إعادة الأدلة على الوحدانية .
(١٢) القرآن هداية ورحمة .
(١٣) إحاطة علم الله وعظيم قدرته .
(١٤) من طبع الإنسان التكبرُ عند الرخاء والتضرع وقت الشدة .
(١٥) آيات الله فى الآفاق والأنفس الدالة على وحدانيته وقدرته .
(١٦) شك المشركين فى البعث والنشور ثم الرد عليهم .